

## الشيخ عبد القادر الجيلاني وطريقته في التصوف الدراويش والقادرية مسنه جاف

أجمعت جماهر البحوث في الالهيات شرقيين كانوا أو غربيين (مستشرقين) بأن الشيخ عبد القادر الكيلاني هو أحد ثلاثة أكبر صوفي الاسلام في كل عصر ومكان إن لم يكن أعظمهم طرا كما يعده المتحمسون والاتباع لقد أصبحت طريقته في البحث عن المعرفة والله بالتصوف والزهد والمشهورة بالطريقة القادرية من أشهر الطرق الصوفية إن لم نقل أشهرها طرا وليس أدل على ذلك من إنتشارها في مشارق الأرض ومغاربها ورفع صاحبها إلى مصاف الأولياء بل إلى مقام يفوق مقام الأولياء . لقد وضع الشيخ عبد القادر سلسلته المتصلة التي إمتدت بأذرعها فشملت العالم الاسلامي واتصلت كشبكة محكمة أوقدت جذوة التقوى والصلاح والهبث نفوس الاتباع والاشياع بحماسة دينية كانت أمة الاسلام بحاجة ماسة إليها في وقت عز عليها أولئك الرجال الذين تفتقدهم الأمم روحيا في وقت المحن وحين تبتلى بالارزاء .

عبد القادر الكيلاني أو (الجيلي) هو محي الدين أبو محمد ابن أبي صالح زنكي دوست . ولد في العام (470-471هـ/8-1077م) وتوفي في العام (561هـ

1166م) (1) في قرية (جيل) (2) وإليها ينسب . وجيلان (كيلان) تقع في شمال إيران . وربما اتسعت نسبته هذه إلى ما يعرف بمنطقة (كيلان) في محافظة كرمانشاه الواقعة غرب البلاد الإيرانية (3) . ولقد جاء في هامش « النجوم الزاهرة » أن (الجيل) هي نسبة إلى جيلان وهو اسم لبلاد كبيرة تقع فيما وراء طبرستان (4) .

### نسبه وشخصيته :

نظرا للروايات المختلفة حول أصله ونسبه وجدنا من الأنسب في هذه الدراسة المقترضة أن نأتي إلى ذكر أشهرها وأقربها إلى المتداول واءاء بعض مؤرخي السيرة والباحثين المعتمدين . أن السير العديدة التي دبجتها أقلام الكتاب للشيخ عبد القادر مشحونة بالروايات الخيالية وما هو قريب من الأساطير . ومع هذا فبالامكان أن يستخلص منها بعض حقائق تاريخية قالوا إن نسبه ينتهي إلى الامام الحسن المجتبى على خط مباشر (5) . إلا أن هذا يناقض الحقيقة الواقعة وهي أن الشيخ عبد القادر كان يشار إليه « بالأعجمي » في بغداد نفسها . على أن عظمة النسب وجلاله لن تقوم حاجزا في وجهنا كما لم تقم في أوجه أولئك الباحثين العصريين الذين ما كانت تمسكهم جراتهم العلمية ، وحرصهم على الحقائق التاريخية — عن الاستقصاء وتحكيم العقل والمنطق في روايات السلف بروح علمية متجردة . لقد أجمعت اراء

(1) عن الشيخ عبد الحق الدهلوي — إن ولادة الشيخ عبد القادر كانت في السنة (470هـ) وهو ما يرجحه المستشرقون (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة عبد القادر الكيلاني) أخبار الاخير طبع لاهور ب. ت المص 15-16 .

(2) يرى بعض الباحثين أن « جيل » هو اسم لقرية قريبة من بغداد . وهو زعم مردود أساسا لأن المصادر كلها اجمعت بأن سكنى (الشيخ عبد القادر) بغداد جاء متأخرا وأنه أقبل إليها طلبا للعلم فحسب .

(3) قاموس ايران شهرج 1 ص 605 .

(4) النجوم الزاهرة (ابن تغري بردي) ج 5 ص 371 — القاهرة 1149هـ .

(5) تاريخ الكامل ج 11 ص 141 . شذرات الذهب (عبد الحي ابن العماد الحنبلي ج 4 ص 198 .

الباحثين والمحققين على أن سلسلة النسب هذه إنما كانت من وضع وصياغة حفيده (القاضي أبو صالح نصر) الذي ينسب إليه أيضا كثير من الروايات الخيالية عن جده .

ويقول (حافظ بن كثير الدمشقي) في الموضوع ذاته « هو الشيخ عبد القادر الجيلي ابن أبي صالح محمد الجيلي ولد في العام 470 الهجري وأخذ علم الحديث والفقه من أبي سعيد المخرمي الحنبلي الذي بنى مدرسة لتدريس العلوم الدينية وفوض أمرها إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني لارشاد طلاب العلم . كان الشيخ رجلا تقيا ورعا متواضعا صاحب الكرامة والمكاشفة وتوفي في سنّ يناهز التسعين ودفن في المدرسة التي كان يدرس فيها . ويتتهي نسبه الشريف إلى الإمام الحسن ابن علي رضي الله عنهما (6) وبخصوص نسبه هذا يأتي حفيده (القاضي أبو صالح نصر) بشجرة نسبه المنوه بها التي نقلها عنه الباحثون وكتاب السيرة المسلمون حرفيا وبالشكل التالي :

« محي الدين أبو محمد السيد عبد القادر الكيلاني أبى صالح موسى بن عبد الله الجيلي ابن يحيى الزاهر ابن داود ابن موسى ابن عبد الله ابن موسى الجون ابن عبد الله المحض ابن حسن المثنى ابن الإمام الحسن ابن الإمام علي ابن أبي طالب (7) .

خلافًا لما ذكرناه بخصوص تنظيم هذه الرواية عن نسبه . هنالك دليل منطقي يصعب دحضه إلاّ بالاقرار بوجود سهو وإسقاط أسماء من السلسلة . والأمر يتعلق بحساب أعمار الأجيال لأجداد الشيخ عبد القادر المذكورين . فإذا اعتبرنا متوسط عمر الجيل الواحد (35) سنة وهو اعتبار فيه إسراف كبير عند تقدير عمر أجيال ذلك الزمن — فإنه سيكون بين الإمام علي ابن أبي طالب والشيخ عبد القادر (350) سنة . وبما أن ولادة الشيخ هي في العام 470 فيكون

(6) تاريخ أبي الفدا — الحافظ ابن كثير الدمشقي ج 13 ص 302 بيروت 1966 .

(7) رياض البساتين (الشيخ محمد أمين) ص 14 .

لدينا فراغ بمقدار (120) سنة أي أكثر من ثلاثة أجيال . وهذا ما أخطأته بصيرة ذلك الذي صنف شجرة النسب ومن نقلها عنه فيما بعد .

وشبيه بنسبه من جهة الاب ما لُفِّق عن نسبه من جهة الامّ وهي: أمّ الخير أمة الجبار فاطمة بنت عبد الله الصومعي (8) فقد جعلت شجرتها تنتهي هي الأخرى بالإمام الحسن ابن علي (رض) (9) . وكلا الاب والام كما قيل لنا — كانا من الصالحين .

قال لنا كتاب السيرة إنّ (الشيخ) كان منذ طفولته مثالا للصدق وتمسكه بالحقيقة والاعتصام بها . ويورد (جامي) حكاية عن مبلغ صدقه وتمسكه بالحق في كتابه (نفحات الانس) إذ قال « قال الشيخ عندما نويت السفر إلى بغداد طلبا للعلم أخبرت والدتي بالأمر فجذعت وبكت لفراقي وسلمتني أربعين دينارا من ميراث والدي الراحل واخفت تلك النقود بخياطتها تحت ابط قميصي وأذنت لي بالسفر وأوصتني أن لا أchied عن قول الحق وأجانب الكذب وأتمسك بالصدق في كل ظرف وحال . وبعد أيام توجهت إلى بغداد في قافلة صغيرة . وعندما كنا في طريقنا إليها تصدى لنا بالقرب من همدان ستون فارسا من قطاع الطرق فألقوا علينا القبض ونهبوا أموال القافلة . وفي بادئ الأمر لم يتعرض لي أحد . وبينما هم منشغلون بجمع المنهوبات أقبل عليّ واحد منهم فسألني ما عندك من مال ؟ أيها الفقير قلت له عندي أربعون دينارا . قال وأين هي ؟ قلت تحت ابطي مخاطة بالقميص . فداخل الشكّ قاطع الطريق في صدق قولي وحسبني امزح . فتولى عني غير مهتمّ بما قلت . وبعد برهة من الزمن أقبل عليّ واحد آخر منهم فسألني السؤال نفسه فتلقى

(8) يدعى (على القرمانلي الحنفي في كتابه (الحق الظاهر في شرح حال الشيخ عبد القادر « إن شيخ جيل لا يمت بصلة النسب إلى النبي وآله الطاهرين وإنما ادعى ذلك بعده أولاده » انظر هامش تاريخ السلمانية لامين زكي (ترجمة جميل روزياني) ص 313 .

(9) نفحات الانس (عبد الرحمن جامي) ص 355 . تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية (هاشم الاعظمي) بغداد 1971 ص 11 .

الجواب عينه . فتوجه الاثنان إلى رئيسهم وحكيا له ما سمعاه مني فاستدعاني وكان واقفا على مرتفع من الأرض يشرف على توزيع الأموال المنهوبة بين رفاقه وسألني عن موضع المال فأخبرته به فشققوا قميصي وأخرجوه . وعندها شرع رئيس اللصوص يلومني ويتهمني على قول الحقيقة بقوله « ويحك ! من أجبرك على أن تكشف عن مخبأ مالك وتدلنا عليه ؟ قلت له « عاهدت والدتي على قول الصدق والتمسك به في كل الأحوال ولن انكث بعهدي وأخون الثقة التي وضعتها بي والدتي بسبب أربعين دينارا . فبكى رئيس الحرامية وقال « الويل لي إذن . فأنا منذ سنين عدة أخون عهد الله . ماذا سيكون جزائي يوم القيامة ؟ ومن ساعته طلب رئيس الحرامية المغفرة من الله وتاب على يدي (10) . ثم انه كاشف أتباعه بتوبته فساروا على نهجه وتابوا جميعا إلى الله وكانوا أول من تاب على يدي (11) .

قلنا ، أرسل الشيخ عبد القادر إلى بغداد وهو في سن الثامنة عشرة لتحصيل العلم . فدخلها في العام (488هـ/1095م) وكان ذلك في عهد الخليفة « المستظهر بأمر الله » . وانتظم في صفوف طلاب العلم معتمدا في معاشه أول الأمر على والدته . وداوم حضور حلقة التبريزي (ت 502هـ/1109م) الدارسية في علم الكلام والفلسفة الاسلامية . وأخذ الفقه الحنبلي وبرع فيه وتعمق (بعضهم

(10) رويت هذه الحكاية بشكل مختلف عما ورد في المتن في كتاب « أرزش ميراث صوفية » . فها هنا يكون مسرح الحادثة طريق مكة والشيخ في قافلة متوجهة إليها . ولا يرد ذكر شيء عن توبة قطاع الطرق عندما أصدقهم الشيخ عبد القادر الخبر عن مخبأ نفوده . وفي رأينا أن الشق الأول من الحكاية وهو مكاشفة الشيخ اللصوص بموضع ماله مما يقبله العقل والمنطق لأنه قريب من صفات الشيخ وفضيلته التي عرف بها فيما بعد . أما مسألة توبة اللصوص الآتية ففيها نظر وهي أقرب إلى الشك بصحتها من الايمان بها فليس من المعقول أن يبادر اللصوص الذين تحجرت قلوبهم وتبلدت عقولهم من كثرة اتخاذهم القتل والسلب وارتكاب المحرمات مهنة - هكذا وبدون سبق تمهيد إلى الاهتداء دفعة واحدة عن آخرهم دون اعتراض واحد منهم على الأقل . لذلك تكون رواية (ارزش ميراث صوفية) أقرب إلى المنطق والعقل حينما أسقط من الحكاية الجزء الخاص بتوبة اللصوص وأورد بديلها الذي هو أقرب إلى التصديق . إذ أنه قال « إن اللصوص الذين اندهلوا من موقف الشيخ بادروا إلى منحه مالا فقام بتوزيعه على الفقراء (دكتور عبد الحسين زرين كوب) ص 81 .

(11) نفحات الانس (جامي) الص 354-355 .

يقول الفقه الشافعي (12) . وعُرف من معلميه وأساتذته (أبو الوفا على ابن عقيل) و(أبو الخطاب أحمد الكوداني) و(أبو الحسن محمد ابن القاضي) و(أبو يعلى ابن الحسين ابن محمد الفراء) وبالأخص (هبة الله المبارك أو ابن المبارك) و(أبو نصر محمد البناء) وهما الاستاذان اللذان كان يستشهد بهما ويقتبس منهما في آثاره (13) . كما أنه سمع الحديث عن جماعة «منهم (أبو غالب محمد ابن أبي الحسن ابن الباقلاني) و(أبو سعيد عبد الكريم ابن حبش) . وقرأ الأدب على (أبي زكرياء يحيى ابن علي التبريزي) المار ذكره وصحب الشيخ (حماد الدباس) وتصوف عليه وأخذ عنه علم الطريقة . وتسلم (الخرقة) من (أبي سعيد المخرمي) وبهذا يكون حماد الدباس شيخ طريقته وأبو سعيد المخرمي شيخ خرخته (14) وانضم إلى جماعة الزهاد بعد تخرجه.

هذا كل ما عرف عنه وعن حياته فيما بين (488هـ/1095م) و(521هـ/1127م) عدا عن أنه حجّ إلى مكة خلال هذه الفترة وأنه تزوج إذ أن واحداً من أولاده التسعة والأربعين ولد في العام (508هـ/1114م) . واستناداً إلى بعض المصادر أنه عين في آخر هذه الفترة قيماً على ضريح (الامام أبي حنيفة) وهناك لازم شيخ طريقته المذكور آنفاً (أبا الخير حماد (محمد) ابن مسلم الدباس) (ت 525هـ/1131م) وهو من صلحاء الصوفية المعروفين حتى أن (الشعراني) أدرجه في قائمته (صلحاء الصوفيين) . لقد اهتدى الشيخ عبد القادر على يده في اثناء زيارة له «فاقتنص أحدهما بالآخر بازيّاً» . وبسبب ذلك لقب الشيخ عبد القادر بالباز الاشهب على قول (الدميري) .

- 
- (12) بيركيلان (باهتمام محمود محمدى قادري) سنندج 1375هـ - ص 4 . تاريخ السليمانية الص 312-313 . ارزش ميراث صوفية (عبد الحسين زرین كوب ص 80) .  
(13) تاريخ جامع الامام الاعظم ومساجد الاعظمية (هاشم الاعظمي) ج 2 ص 247 بغداد 1965 . تاريخ السليمانية ص 213 .  
(14) حسنة العارفين (محمد داراشكوه - بامقدمه وتصحيحات مخدوم رهن بتهران) 1352 شرقى - ص 100 . تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ص 43 .

إن الممارسة والتلقين الصوفيين كانا يتضمنان المعاناة الشديدة ورياضة النفس رياضة بالغة القسوة . وبعد انصواء الشيخ عبد القادر إلى زمرة الصوفيين يظهر أن أصحاب الطرق الصوفية الآخرين استنكروا من (الدّباس) إدخال فقيه من الفقهاء في حلقاتهم . وبعد مدة من التلمذة على هذين الشيخين اعتبر جديرا بتسلم الطريقة والخرقة التي تسلمها كما قدمنا من القاضي (أبى سعيد مبارك المخرمي) صاحب مدرسة الفقه الحنبلي التي كانت تقع بالقرب من باب (الازج) في بغداد حيث كان الشيخ عبد القادر الكيلاني يبدو ملازما لها وذلك في العام 521هـ/1127م (15) .

وبناء على نصيحة الصوفي (يوسف الهمداني) في حدود (535-540هـ 1140-1145م) بدأ الشيخ عبد القادر بالوعظ العلني وإرشاد الناس وكان في أول الأمر يرشد في حلقة صغيرة من المستمعين أخذت دائرتها تتسع بالتدرّج . ثم صعد منبر الخطابة في (باب الحلبة) ببغداد . لكن جمهرة مستمعيه تكاثروا وتزايد قصاده بشكل مطرد فلم ير بدا من ممارسة وعظه خارج الباب . فشيد له رباط (تكية) . وفي العام (528هـ/1133م) وسعت مدرسة (مبارك المخرمي) بأموال تبرع بها العموم وربما كان ذلك بعد موت أو تقاعد مؤسس المدرسة (مبارك) (16) . لقد تمّ توسيع تلك المدرسة بإدخال وضمّ البنايات المجاورة إلى الأصل وعين الشيخ عبد القادر مديرا ورئيسا لها وكان يخطب ويرشد الناس فيها كل مساء اثنين وكل صباح جمعة ويرشد في رباطه (خلوته) كل صباح أحد .

قيل لنا أن تأثير خطبه وإرشاده كان عظيما في النفوس شديد الوقع محركا لاعمق العواطف ورويت حكايات كثيرة شبيهة بالأساطير عن الاهتداءات والانجذابات التي كانت تحصل في مجلسه وعلى أثر سماع خطبه .

(15) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) مادة عبد القادر الكيلاني .

(16) أخبار الاخيار ص 15 .

وذكروا لنا أن كثيرا من اليهود والنصارى اعتنقوا الدين الاسلامي بتأثير قوة حججه . فضلا عن توبة العديد من المسلمين الضالين وحسن دينهم بعد ذلك . وكانت ترسل إليه الهدايا بوصفها نذورا من شتى أقطار العالم الاسلامي في الوقت الذي كانت شهرته تتعظم . وكثيرا ما زادت قيمة هذه النذور عن الدينار الواحد . الأمر الذي أعانه على ضمّ تلاميذ (مريدين) إلى مدرسته مجانا وكانت ترده أسئلة عديدة تتضمن مسائل فقهية من شتى الأرجاء وفي مختلف المواضيع فيجيب عنها ارتجالا دون رجوع إلى المصادر والمطان . وذكروا أن الخلفاء ووزراءهم كانوا من جملة مراجعيه في الأسئلة .

### من تلاميذه

تخرج على يد الشيخ عبد القادر علماء وصوفيون كثر . ذاع صيتهم في العالم الإسلامي بعلمهم وتقواهم وصفاتهم الحميدة ومن هؤلاء الشيخ (عمر السهروردي) الذي صار قطبا من اقطاب الصوفية و(ابن قدامة الحنبلي) شيخ (الإمام ابن تيمية) و(الشيخ عمر ابن مسعود البزاز المتوفي في 605هـ/1207م) و(أحمد ابن المبارك المقرئ) (المتوفي في 570هـ/1173م) و(بشير ابن محفوظ الأزجي) (المتوفي في 585هـ/1198م) (17) و(الشيخ جمال الدين الجوزي . هؤلاء كلهم اشتهروا بالتقوى والزهادة وممارسة الطريقة في حين نبغ بعضهم في مسالك أخرى ك(السمعاني) مؤرخ سيرته . هؤلاء وأمثالهم الذين كان لهم شرف الصحبة والدرس والممارسة على يد الشيخ — شيدوا بناء الطريقة الصوفية التي عرفت فيما بعد بالطريقة القادرية . لقد جاءت دعوة الشيخ عبد القادر الكيلاني في وقت كان الاسلام وشريعته يمران بظروف عصبية للغاية حيث كثرت الفرق واشتدت الانحرافات وشاعت البلبلة الفكرية وعم الاحاد وتسلبت الظلم وكثرت الفتن والاضطرابات السياسية واتجه التصوف ناحية الشذوذ

(17) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني الص 18-19 .



وابتعد عن الشريعة حتى لم يعد يتصل بها إلاّ بخيوط واهية هي خيوط المظاهر والادعاء . واتسعت الهوة بين أصحاب التصوف واقطابه وبين العلماء والفقهاء فأخذ أحدهما يكفّر الآخر ويتهمه بالمروق والزيف والزندقة وأخذ المتصوفة يترشقون بالتهم الخطيرة وأقلها نبذ الدين أو التمسك بحرفيته التي لا تقل عندهم عن الابتعاد عن جوهر الدين واعتبروا الفقه علم الدنيا لا علم الدين . ومن أمثلة ذلك ما قاله (أبو طالب المكي (ت 386هـ/995م) « مثل علماء السوء كمثل قناة الحشّ ظاهرها حسن وباطنها نتن . ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى (18) » .

ووصل الخلاف والتنازع حدا يصوره لنا ما حكى عن (أبي عبد الله ابن خفيف) (ت 371هـ/981م) قالوا إنه كان يوصى الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية . وقالوا إنه كان يخبىء المحبرة والورق في ثيابه ويقصد أهل العلم خفية . فإذا علم به الصوفية خاصموه وقالوا له لا تفلح (19) . وأما الصوفي المعروف جدا (أبو يزيد البسطامي) (ت 361هـ/971م) فقد كان يقول لعلماء عصره « أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتا عن ميت أو أخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت (20) » ووجه الصوفي الشهير (محيي الدين بن عربي) لمعاصره (فخر الدين الرازي) رسالة بين فيها أن علمه ليس كاملا لأنّ العلم الكامل لا يؤتى إلاّ من الله مباشرة لا عن طريق الرواية والمعلمين (21) .

كان الخصام والتقاؤف متبادلا من البداية ويروي لنا الاصمعي (ت 216هـ 830م) أن فقيها معاصرا تكلم الناس في مجلسه عن أولئك الذين يمشون بين

(18) قوت القلوب (أبو طالب المكي) طبع القاهرة ج 1 ص 141 .

(19) Notes on Some Sufi Lives : Amezro (J.R.A.S.) 1912, S.P. 556

(20) شرح البردة (حسن العلوى) ج 3 ص 77 طبع القاهرة 1297 .

(21) العقيدة والشريعة في الاسلام (كولد تسيهر) الترجمة العربية ص 356 .

الناس بمهابة ووقار وهم مرتدون ثياب التائبين الخشنة . فأجاب الفقيه المذكور بقوله « ما علمت أن القنذرَ من الدين (22) » .

كان سبب ذلك أن بعض فرق المتصوفة أهملت شعائر الدين وفرائضه إهمالا دفع بها في كثير من الأحيان إلى إنكار السنة ورفضها رفضا كاملا . وهذا ما حمل فقهاء السنة على إتهامهم بالزندقة . وكرّد فعل لهذا السبب العقائدي في القرنين الثالث والرابع الهجريين طغت موجة مفاجئة من التعصب للشرعية الإسلامية والالتزام الحرفي بها في بغداد ومن نتائج هذه الموجة شنت حرب اضطهادية على المتوصفة فتعرض أهلها للمطاردة والمصادرة والسجن وإلى قتل بعضهم بحدّ الشرع . وفي هذا الصدد يقول (الجندب البغدادي) هو من أئمة المتصوفة آنذاك « لا يصل امرؤ إلى مرتبة الحقيقة ما لم يعامله ألف صديق معاملة زنديق » . واستمرت الحالة بالصوفية على هذا النسق من الشدة والتضييق حتى القرن الخامس الهجري حيث حاول بعض الفقهاء وفريق من الصوفيين التوفيق بين المعسكرين . وهنا أخذنا نشعر بأن الصوفيين صاروا يحاولون التلطيف من ممارساتهم بالتقرب إلى الشريعة ثانية وحاولوا أيضا تحاشي كل ما يخلق تحاملا عليهم في نفوس خصومهم أو رميهم بجحود الاسلام . وفي هذه الفترة يقوم الصوفي الشهير (القشيري) صاحب الرسالة القشرية (23) بتأليف كتابه الرائع الذي يعتبر محاولة جدية ناجحة في نفي صفة الزندقة عن الصوفية وعقيدتهم والتوفيق بين ممارساتهم وبين أحكام الشريعة وإثبات أن (الاقطاب) الحقيقيين من الصوفيين والصادقين في صوفيتهم يجب أن يكونوا مسلمين حقيقيين وصادقين (24) .

وسار الغزالي (توفي في 505هـ/1111م) على نهج (القشيري) وهكذا حتى جاء الشيخ عبد القادر الكيلاني بمذهبه الصوفي الذي لا يحيد قيد شعرة عن

(22) عيون الأخبار لابن قتيبة ص 355 .

(23) و(24) - هو أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري توفي 437 هـ 1035 م . أنظر رسالته الرسالة القشرية في علم التصوف ص 30-31 طبع بيروت .

خطّ الشريعة المحمدية . لقد أعلن (الشيخ) على الممارسات الصوفية القديمة حرباً شعواء متسلحاً بعلمه الوافر وحجته الدامغة . فأعاد التصوف إلى وضعه الصحيح ورده إلى مورده الاساسي وهو الكتاب والسنة وأخمد صوت عقيدة (وحدة الوجود) وقطع أنفاس مردديها بالبراهين الشرعية والأدلة العقلية والنقلية المنطقية مهتدياً بالحقيقة الصوفية . مما دعا الشعرا إلى القول فيه « كانت طريقته هي التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً . وكان يقول لأصحابه إتبعوا وأطيعوا ولا تبتدعوا ولا تمخلفوا » . وكان يقول لهم أيضاً : كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة . طرّ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة . أدخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وسلم . اجعله وزيرك ومعلمك ودع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه .

### أصل طريقته

تركزت الطريقة بنوع خاصّ في العراق وكرديستان وبلاد فارس وتركيا وسورية . وانك لتجد اليوم أتباع الشيخ ومن ينتسب إلى ذريته حتى في افريقيا (نيجيريا) ومراكش حيث أنشئت منذ العام 1164 للهجرة خلوة (رباط) في مدينة (فاس) باسم الشيخ . وانتشرت طريقته كذلك بين مسلمي الباكستان والهند و أفغانستان .

هنالك روايات عديدة حول سند طريقته ومن ذلك ما جاء في كتاب (مكتوب أمر ونهي) من أن الشيخ عبد القادر أخذ الطريقة عن أبي سعيد الذي أخذها عن أبي الحسن الهكاري الذي تسلمها من أبي الحسين (25) عن أبي الفرج الطرسوسي عن فضل التميمي عن أبي بكر الشلي عن الجنيد البغدادي

(25) لم يذكر مؤلف كتاب (جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني) اسم (أبي الحسين) ضمن سلسلته لسند الطريقة القادرية . كما أنه اختتم بالسند بالامام علي عن طريق (معروف الكرخي) عن الامام الرضا وآبائه الطاهرين (انظر الكتاب ص 43) .

عن السرى السقطي عن معروف الكرخي عن صبيب عن الحسن البصري  
عن الامام علي كرم الله وجهه (26) .

إن هذه السلسلة التي أثبتها الصوفي الكردي الشهير صاحب (مكتوب  
أمر ونهي) وهو من متصوفة القرن التاسع عشر شبيهة بمحاولة احفاد الشيخ  
في اختراع شجرة نسب له تصله بالأئمة العظام فليس فيها صوفي إلاّ وهو  
قطب يشار إليه بالبنان . هذا فضلا عن أن الصوفي الكردي (معروف النودهي)  
لا يذكر من أين وصلته هذه المعلومات ولا يحاول إسنادها إلى كتاب معروف  
أو غير معروف فالفصد منها واضح وهي زيادة تقدير للشيخ عبد القادر ورفع  
لمكانته وتزكية لطريقته بتقريبه من أئمة الصوفية الذين سلفوا .

على رأس الطريقة يقوم الشيخ أو (البير) أو (الدليل) ومعنى البير لغويا :  
الرجل المسنّ هذا الشيخ بمؤهلاته وكراماته يصير مرشدا أو دليلا أو رئيسا  
روحيا للمريدين (جمع مرید وهو الطالب أو القاصد) إلى المعرفة والعلم .  
وتسمى المدرسة التي يجتمع فيها التلامذة للارشاد إلى طريقته وسماعه بـ(التكية)  
أو الرباط أو الخانقاه وهو مركز الدروايش والمتصوفة الذين يعكفون على  
الذكر والعبادة والانقطاع عن الناس فيها إلى جانب رياضة النفس وقمع  
الشهوات . وفيها يعلن المرید توبته وندامته ثمّ يباشر بالرياضة وفق ارشاد  
(بيرة) حتى يجد هذا المرشد أن تلميذه وصل المرحلة التي تجعله مستحقا لتسلم  
الطريقة وعندها يعلن الأمر (كمن يعطيه شهادة تخرج) ويجيز له أن يرشد  
ويعلم . فإذا سار في الطريقة سيرا حسنا وصحيحا ارتقى بطول الممارسة إلى  
مرتبة (البير) وعين « خليفة » لشيخ أي خلفا له . وإذا زاد الخلفاء أذن لهم  
بالرحيل وتأسيس تكايا خاصة بهم في بلاد أخرى . ويكون إذ ذاك أهلا  
لتلقين تعاليم بيده أو دليله للآخرين ويجوز له أن يجمع من حوله المريدين .  
فإذا بلغ درجة مناسبة من الكرامة كان له أن يظهر بمظهر الشيخ ويغدو دليلا

(26) مكتوب أمر ونهي (السيد كاك أحمد ابن معروف النودهي) طبع بغداد 1936 ص 3 .

لجيل جديد من التلاميذ . وكل إجازة بالطريقة يجب أن تتضمن قائمة كاملة بأسماء الخلفاء الروحيين متسلسلة (تدعى السلسلة وقد تكلمنا عنها فيما سلف وسنعود إلى التكملة فيما بعد) تصل حتى (أبو بكر الصديق) أول الخلفاء أو (علي ابن أبي طالب) (27) .

### العقيدة القادرية في ميدان التطبيق :

تذكر دائرة المعارف الاسلامية أن الطريقة القادرية في نطاق الممارسة والشعائر هي مثل الممارسة التي كان يتبعها (جمال الدين الجوزي) أحد تلاميذ الشيخ المشهورين في بغداد الذين نحوا منحى شيخهم العتيد في الوعظ والارشاد . وقد وُصِفَت تلك الطريقة وصفا دقيقا في رحلة (ابن جبير 451—607هـ/1145—1217م) ودونك إياها :

« الشيخ الفقيه الإمام الاوحد جمال الدين الجوزي أبي الفضائل ابن علي .... من أبهر اياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويتدلى القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئاً . فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة اية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق . فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم اية ثانية . ولا يزالون يتناوبون ايات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بايات مستشبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً أو يسميها نسقاً . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً وأفرغ في أصداق الاسماع من ألفاظه درراً وانتظم أوائل الايات المقرؤات في اثناء خطبته فقرأ وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدماً ولا مؤخراً ثم أكمل الخطبة على قافية اخر اية منها ... ثم أنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ و ايات بينات من ذكر طارت لها القلوب

(27) كرد وترك وعرب . (س. ج. ادموندز) تعريب جرجيس فتح الله ص 64 .

إشتياقا وذابت لها الأنفـس إحترافا إلى أن علا الضجيج وتردد شـهقاته النـشيج وأعلن التائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفرائش على المصباح كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعيا له . ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الاذرع إليه .....

« .... ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له بكرة يوم الخميس ... بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة وخص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر . وجلوسه هذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس وقعدنا إلى أن وصل هذا الخبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان وقد تسطر القراء أمامه على كراسى موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ما شاؤا وأطربوا ما أرادوا وبادرت العيون بإرسال الدموع . فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات- صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في اثائها منتظمت ومشى بالخطبة على فقرة آخر آية فيها على الترتيب إلى أن أكملها وكانت الآية « ... الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس » فتمادى على هذا السين وحسن أيّ تحسين فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه . ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى لها بالستر الاشرف والجناب الأرف ثم سلك سبيله في الوعظ كل ذلك بديهة لا روية ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقرؤات على النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون وابدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين بالتوبة معلنين وطاشت الالباب والعقول وكثر الوله والذهول وصارت النفوس لا تملك تحصيلا ولا تميز معقولا ولا تجد للصبر سبيلا ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق تشعل

القلوب وجدا ويعدو موضوعها ينبني زهدا . وكان اخر ما أنشده في ذلك  
وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام :

أبن فؤادي أذابه الوجد      وأبن قلبي فما صحا بعد  
يا سعد زدني جوى بذكرهم      بالله قل فديت يا سعد

ولم يزل يرددّها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام  
من فيه إلى أن خاف الافحام فابتدر القيام ونزل عن المنبر دهشا وقد أطار  
القلوب وجلا وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمدامع الحمر فمن  
معلن بالانتحاب من متعفر بالتراب فياله من مشهد ما أهول مرآه وما أسعد  
من رآه نفعا الله ببركته وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته . وفي أول  
مجلسه أنشد قصيدا ميّز القبس عراقي النفس في الخليفة أوله :

في شغل عن الغرام شاغل      مأهاجه البرق بسفح عاقل (28)

من هذا ومن الممارسات اللاحقة نجد الطريقة القادرية تعتمد في التأثير  
على الحجة والكلام المقنع وتستند إلى السنة وإلى تعاليم القرآن الكريم بالدرجة  
الاولى ولا تتطلب من المنتمي لها أكثر من التوبة والتجرد من متاع الدنيا .  
ولا تستدعي مراسم خاصة جدا . الا أن ذلك لم يعتم كثيرا فقد انجرفت  
الطريقة فيما تلا من العصور بما انجرفت به الطرق الاخرى وقل من أتباعها  
من تمسك بعري الممارسة الاولى فمارس دراويشها فيما بعد المظاهر العنيفة  
كالرقص حتى فقد ان الوعي واستخدام الدف وآلات الايقاع وايقاع الاذى  
بأجسامهم في حفلات الذكر والسير على النار وغير ذلك مما سنشرحه في  
ختام بحثنا هذا .

---

(28) رحلة ابن جبير الص 199-202 طبعة بريل-لیدن 1908 .

## آثار الشيخ عبد القادر الكيلاني :

إن ما جاءنا من آثار الشيخ كله ديني الصبغة . ومعظمه خلاصات ومختصرات لمواعظه وإرشاداته : والمعروف منه هو هذا :

1 — الغنية لطالبي طريقة الحق — وهو رسالة في الاخلاق والسلوك . طبع لأول مرة في القاهرة (1288هـ) بمطبعة بولاق .

2 — الفتح الرباني — وهو مجموعة تتألف من إثنين وستين خطبة ألقاها فيما بين (545-546هـ/1150-1152م) طبعت مع ذيل في القاهرة (1302هـ) .

3 — فتوح الغيب — وهو مجموعة تتألف من ثمان وسبعين خطبة في مختلف الموضوعات . جمعها ابن الشيخ المدعو عبد الرزاق وضم إليها وصايا أبيه وهو في فراش موته مع شجرة نسبه من جهة الاب وجهة الام ، ودلائل عن رابطة الصوفية بالخليفتين (أبي بكر وعمر ابن الخطاب) وعقيدته وطائفة من أشعاره . وفيه حاشية الشننطونوفى (بهجة الأسرار) طبع في القاهرة (1304هـ) .

4 — حَسْبُ بشائر الخيرات — وهي ادعية صوفية طبع في الاسكندرية (1304هـ) .

5 — جلاء خاطر (ذكره حاجي خليفة في معجمه كشف الظنون) وهو مجموعة خطب أولها تحمل رقم 59- و آخرها رقم 57- وكلها مدرجة في كتاب (الفتح الرباني) الذي أثبتناه . ولعله عنوان ثان للكتاب نفسه ؟

6 — المواهب الرحمانية والفتوح الربانية في مراتب الاخلاق السنية والمقامات العرفانية : وهو ضمن (روضة الجنات ص 441) وربما كان عين الكتاب الذي أثبتناه تحت رقم 2- أو 3- أو 7- ؟



7 — يواقيت الحكم (ذكره حاجي خليفة في معجمه كشف الظنون)  
8 — الفيوضات الربانية في الأوراد القادرية : وهو مجموعة من الادعية  
طبع في القاهرة (1303هـ) .

9 — مواعظ تتضمن أيضا كتاب (بهجة الاسرار وغيره من اثار  
السير) المخطوط الرقم 622 في قائمة الدائرة الهندية هو نسخة غير دقيقة لهذا  
ال اثر . وكتاب إيران يشيرون إليها عموما باسم (ملفوظاتي قادري) .

في هذه الاثار الكتابية يبدو لنا الشيخ عبد القادر فقيها واعظا قديرا  
متمرسا وواعظا متحمسا غيورا مخلصا ذرب اللسان قوي الحججة . وأما كتابه  
(الغنية) فيحتوي فضلا عن الخطب أبحاثا حول ثلاث وسبعين فرقة دينية  
إسلامية جمعت تحت عشر طوائف . في هذه الكتب ترى الشيخ يشير إلى  
عدد من علماء النحو كالمبرد صاحب «الكامل» وفي أكثر الأحيان تجده  
يعود ليستشهد بشارحي آي القرآن الأولين إلى جانب أقوال أولياء الصوفية .  
وطريقته كما يتبين من هذه الاثار أنه لا يحيد عن السنة ولا ينحرف وأسلوبه  
الكتابي أو بالاحرى اللقائي أسلوب جدي خال من الشطحات . مع هذا نجد  
بعض التفسيرات الصوفية لآيات القرآن والتشديد والتوصية بترديد بعض  
العبارات والادعية خمسين مرة أو مائة مرة .

إن الخطب التي يحتويها الكتاب الرقم (2) الفتح الرباني هي في الواقع  
خير ما في تراث الاسلام من خطب على الاطلاق . فالروح التي تعظ بها ليست  
في الواقع روح حضّ على الاحسان أو عمل الخير . بل هي رغبة حارة صميمة  
من الواعظ في أن « يغلق أبواب جهنم ويفتح أبواب الجنة لسائر البشر » بصرف  
النظر عن أديانهم ومعتقداتهم . ونادرا ما ترى الشيخ يستخدم التكنيك (الصيغ)  
الصوفي . كما أنه ينزع إلى التبسيط فقلما استخدم التعابير التي يصعب فهمها  
على السامع . إن الخط العام الذي تسلكه تلك الخطب في التصوف هو الحاجة  
إلى قضاء فترة نسك وزهادة في أثنائها يستطيع المريد أو التلميذ أن يقطع نفسه

عن العالم ويتأمل في أحواله بعيدا عن المؤثرات الدنيوية . على أن بإمكانه بعد قضائه هذه الفترة أن يعود إلى الدنيا ليستمتع بنصيبه من طيباتها أثناء قيامه بهداية الآخرين .

ومن موضوعات المواعظ الرئيسية أيضا شرح المبدء الصوفي القائل « إن كل شيء سواء أهو متاع من الدنيا أو جزاء من الآخرة إنما هو حجاب بين المرید وبين الله (الحق) . وإن أفكار (المرید) يجب أن تتوجه إلى (الحق) فحسب . وتؤكد المواعظ على إرشاد المستمعين بأن يصيبوا الأولياء من حياتهم ولو كان ذلك سيؤدي إلى حرمان أقربائهم منها .

لا تجد الشيخ يشير إلى نفسه أو يتحدث عنها إلا عَرَضًا . وإن اتفق وأشار إلى نفسه كانت إشارته متواضعة بعيدة عن التعالي والمباهاة . وهو يطلق على نفسه تعابير مخصوصة مثل (مِسْنٌ أهل الأرض) . هذه العبارة لا تعني أكثر من أنه قادر بسهولة على التمييز بين الجادين والهازلين من قصاده ومستمعيه . ويلاحظ كذلك إدعاؤه بكل حزم وجزم إنه ينطق بحسب آراء أهل السنة والثلقات وأهل العمدة منهم .

### آراء العلماء والصوفيين فيه :

إن الأحاديث التي نقلها مرید والشيخ عبد القادر وتلامذته عنه (كعبد الله ابن محمد البغدادي . وعبد المحسن البصري . وعبد الله ابن نصر الصديقي (أنوار نار) غير متوفرة في مظانها حاليا وإنما نقلها عنهم صاحب بهجة الأسرار (29) . وفي معجم السمعاني نجد كلمة (شيخ) تسبق كلمة (جيل) فهي كنية إشتهر بها (شيخ جيل) أعني أنه كان يعرف بهذه الكنية . إذ لا نجد بعد هاتين اللفظتين غير فراغ . ومع هذا فنحن نجد للشيخ سيرة جيدة أثبتتها

(29) بهجة الأسرار ص 109 .

نجل (السمعاني) (30) إلا أن أسلوب تلك السيرة خال من الحرارة والحماسة . وفي سيرة أخرى لـ (موفق الدين عبد الله المقدسي) الذي كان ملازماً له خلال الأيام الخمسين الأخيرة من حياته يذكر أن أهالي بغداد كانوا يجلبونه غاية الاجلال وانه عزيت إليه كرامات عديدة . إلا أن مورد هذا الحديث يعترف بأنه لم يشهد واحدة منها بأم عينه . وكان هو وشخص آخر تلميذي الشيخ الوحيدين في فترة معينة من الزمن .

أما معاصره (أبو الفرج ابن الجوزي) (31) فهو يحدثنا عن نجاحه العظيم كواعظ وخطيب ، فيقول إن كثيراً من مستمعيه كانوا يخرون صرعى لساعتهم بغلبة العاطفة عليهم . ويسجل حفيد ابن الجوزي هذا في (مرآة الزمان) عدداً من المعجزات والكرامات التي تمت على يد الشيخ عبد القادر .

ويذكر ابن عربي المولود في (560هـ/1165م) أي قبل وفاة الشيخ بسنة واحدة : « كان من الأولياء الصالحين وأنه قطب عصره وزمانه (32) وصاحب هذه الطريقة والقاضي الذي يحتكم إليه الناس (33) وواحد من الملامية (34) » . كما عزى إلى هذا الصوفي الشهير أيضاً قوله عن الشيخ عبد القادر أنه « من حمد الله وهو في الرحم » وإن مقامه يعلو مقام سائر البشر وهو أدناهم إلى الحق (الله) .

وفي كتاب (بهجة الأسرار) لمؤلفه المتوفي في 713هـ/1314م) أي بعد أن توفي الشيخ بنحو قرن ونصف قرن نجد ثبناً بطائفة من الكرامات تمت على يد الشيخ دعمها بإيراد أسماء شهود تواتر عليها قال الامام ابن تيمية عنها

(30) هو تاج الاسلام القاضي أبو سعيد عبد الكريم ابن محمد السمعاني صاحب كتاب (الانساب) . فقيه ومحدث شافعي (509-562هـ 1114-1166م) .

(31) هو عبد الرحمن ابن الجوزي فقيه حنبلي ومؤرخ صاحب كتاب المنتظم في تاريخ الامم (511-597هـ 1116-1200م) .

(32) الفتوحات المكية ج 1 ص 262 .

(33) المرجع نفسه ج 2 ص 24 .

(34) المرجع نفسه ج 3 ص 44 .

أنها (أي تلك الشهادات) تبلغ حدّ القناعة وتستوفي متطلبات التحقيق وإن كان يشوب بعضها ضعف .

على أن (الذهبي) (35) طعن بصحة ما جاء في كتاب بهجة الأسرار قائلا أنه جاء بحكايات خيالية لا قيمة لها . في حين نجد ابن الوردي (36) الذي ينقل عن بهجة الأسرار ليطعن بلهجة تفوق لهجة (الذهبي) عنفا وشدة في صحة الأقوال المتعالية والمتعجرفة التي عزا صاحب الكتاب قولها للشيخ عن نفسه فقد ابتدأ بقائمة من الأسماء زعم أن أصحابها سمعوا الشيخ يقول « قدمي هذه على عنق كل ولي » وادعى كذلك بموجب قائمة شهوده تلك أنه ادعى حيازته على « سبعين بابا للمعرفة كل باب منها أوسع مما هو بين الأرض والسماء ... » إلى غير ذلك من الأقوال (37) .

على أن الكتاب الصوفيين كالدميري (38) صاحب (الشمائل في الفقه) لا يرون في هذه الأقوال بأسا ويقبلونها عن الشيخ ويستشفون منها دليلا على سمو مقامه ومهابته الكبيرة في النفوس .

إن مثل هذه الأقوال لا تجد لها مشبها ولا أثرا في كتب الشيخ المحققة . وإن وجود أمثال لها في الأشعار المعزوة له ربما كان سببه حماسة تلاميذه له وفرط تعظيمهم لمقامه . فهذه الأقوال المنسوبة إليه ترفعه فوق مقام الأنبياء أنفسهم ! ولقد عرف أيضا بـ(سلطان الأولياء) ولا يذكر مريدوه وأتباع طريقته

---

(35) هو شمس الدين التركماني من أئمة المحدثين والمؤرخين ولد في دمشق ودرس في القاهرة وعلم في زاوية (أم صالح) في دمشق له كتاب « تذكرة الحفاظ أو ميزان الاعتدال في نقد الرجال » (673-749 هـ 1274-1347 م) .

(36) عمر ابن الوردي من فقهاء الشافعية تولى القضاء بحلب له كتاب « المختصر في أخبار البشر » وهو صاحب القصيدة الالامية المشهورة بلامية ابن الوردي - (690-1348 م) .

(37) التابعون المتأخرون للشيخ عبد القادر ومنهم صاحب رسالة « مخازن القادرية » الفارسي . وهي مخطوطة باللغة الفارسية محفوظة في المتحف البريطاني (الخزانة الشرقية الرقم 248) بذلوا جهودا معينة للتخفيف والتقليص من معنى العبارة الأولى الواسع وحاولوا تبرير موقف الشيخ من قولها دون أن يتصدوا لنفيها أو الشك في صحة نسبتها إليه .

(38) تاج الدين الدميري (735-829 هـ 1334-1425 م) معلم الشيخونية وقاضي قضاة الشافعية في القاهرة زمن الملك الظاهر برقوق الذي كان رفيقا له في حروبه .

إسمه عادة الـ"مقرونا بواحد من هذه الصفات : « مشاهد الله — أمر الله — فضل الله — أمان الله — نور الله — قطب الله — سيف الله — فرمان الله — برهان الله — آية الله — غوث الله — القوس الأعظم (39) » .  
ذريته :

ربما ساعد على بناء أسطورة الشيخ أولاده العديدون الذين يذكر صاحب (بهجة الأسرار) أسماء أحد عشر منهم أولئك الذين تأثروا خطي أبيهم في العلم والتصوف .

- 1 — عيسى (توفي في مصر 573هـ/أو 1177م)
- 2 — عبد الله (توفي في بغداد 589هـ/1193م)
- 3 — إبراهيم (توفي في واسط 592هـ/1197م)
- 4 — عبد الوهاب (توفي في بغداد 593هـ/1197م)
- 5 — يحيى (توفي في بغداد 600هـ/1204م)
- 6 — محمد (توفي في بغداد 600هـ/1204م)
- 7 — عبد الرزاق (توفي في بغداد 603هـ/1207م)
- 8 — موسى (توفي في دمشق 618هـ/1221م)
- 9 — عبد العزيز (لانتقل إلى دجيل وهي من قرى سنجار شمال العراق الغربي وتوفي في 602هـ/1206م) (39 ب)
- 10 — عبد الرحمن (لم يذكر محل وفاته في 587هـ/1191م)
- 11 — عبد الجبار (توفي في 575هـ/1180-79م) .

وتشير بعض المراجع إلى عدد آخر قليل من الأولاد إشارة باهتة مع بعض المعلومات ومنها أن (عبد الوهاب) الذي يتسلم الطريقة من والده يعود

(39) دائرة المعارف الإسلامية المادة نفسها .

(39ب) هكذا ورد في دائرة المعارف الإسلامية . وهو خطأ كبير ، فليس من توابع قضاء سنجار في العراق قرية تدعى دجيل . والصحيح هو أن قبر الشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد القادر الكيلاني هو في بلدة عفرة الكردية ، واحفاده يعيشون الآن في (رضائية) بايران .

ليسلمها بدوره إلى ابنه (عبد السلام 548-611هـ/1153-1215م) الذي يسلمها إلى ابن عمه (أبى صالح نصر ابن عبد الرزاق 564-633هـ/1168-1236م) . وفي أثناء حكم الخليفة العباسي الناصر لدين الله (552-622هـ/1180-1225م) نفيت أسرة الشيخ عبد القادر بصورة مؤقتة من بغداد وكان ذلك حسبما أورده «سبط ابن الجوزي» بسعاية ورغبة (أبى يونس) وزير (الناصر) . وقد هلك عدد من أفراد الأسرة في أثناء الفتح المغولى لبغداد في العام 1258م إلا أن مقر الطريقة القادرية ومركزها ظل كما كان دائما في هذه المدينة .

### الممارسة العملية للدروشة القادرية :

احتدم النقاش حول الدروشة وعلاقتها بالتصوف منذ القديم وبما أننا ذكرنا أننا سنتصدى إلى الممارسة العملية للدروشة عموما والدروشة القادرية بالاختصاص في الجزء الأخير من بحثنا هذا ولما كان هذا القسم يحتوي كما سيتبين القارئ على نقاط تأمل جديدة ووجهات نظر قابلة للأخذ والرد لم يتطرق إليها الباحثون في هذا الباب بشكل عميق فإنه سيتعين علينا أن نجيب قبل كل شيء عن سؤالين .

ما هي الدروشة ومن هم الدراويش وكيف إلتقت الطريقة للقادرية بالدروشة ؟

هل من الممكن تفسير الظواهر الخارقة التي يقوم بها الدراويش في أثناء ممارستهم شعائرتهم (حلقات الذكر) تفسيراً يتفق مع العلم وروح العصر الواقعية ؟

اختلف اللغويون في أصل كلمة (درويش) والمعروف عموماً أنها فارسية مركبة من لفظتين (در = باب) و(ويش = الباحث أو الطارق) أي المستجدي أو المتسول (40) . على أن الأصل الصحيح الذي لا جدال فيه يبدو غير

---

Vuller Lexicon : I.P. 839. 845 (40)

معروف . وبمفهوم الاسلام الواسع تطلق لفظة (درويش) على كل متمم إلى عصابة دينية صوفية . وبالمفهوم الفارسي والتركي تستخدم بمعنى أضيق فتطلق على المتسول الديني مقابل كلمة (فقير) بالعربية .

بقي التصوف قرونا طويلا يسير على أسس فردية أي أن كل صوفي غير ملزم باتباع ما يمارسه غيره من شعائر . إلا أن الدروشة أحوالت التصوف إلى هيئة تنظيمية للحياة الدينية الاسلامية وبذلك أخرجته عن مجرد « مجهود تبذله نفس إنسانية واحدة لأجل خلاصها عن طريق التزهد والعبادة » . هذا التنظيم اقتضى أن يوجد (معلم) يجتمع حوله تلاميذ (مريدون) في حلقة أو حلقات قد تستمر جيلا أو جيلين لا أكثر بعد وفاة (المعلم) ويشرف عليها أحد تلامذته النابغين وأهل الثقة . ويدعى هذا بالخليفة . بقي التصوف كذلك محافظا على هويته وأسلوبه العتيدين في العبادة وبعنوان ثابت معين حتى القرن السادس الهجري وهو عصر حكم السلاجقة الملىء بالاضطراب والقلق السياسي والفكري . فهنا بدأ يظهر ما يشبه اليوم بالنقابة المستمرة في التصوف . وأولها جزما هي الطريقة القادرية أي النقابة الصوفية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني فقد بقيت حتى يومنا هذا منذ تأسيسها . بعدها ظهرت (طرق) أو اتحادات صوفية منظمة متعددة كالطريقة النقشبندية والمولوية والبكتاشية والأحمدية والرفاعية والحيدرية والسعدية الخ .... إما أنشأها (أولياء) مستقلون وإما انشعبت عن طرق قديمة .

إن هذا الأصل التاريخي لنشوء الطرق يجب أن لا يخلط بينه وبين الروايات التي يرويها كل صاحب طريقة عن مصدر ممارسته العملية وضعف العبادة التي يستخدمها . كان أصل التصوف يدفع كما بينا إلى باني الشريعة الاسلامية (محمد ص) لإسباغ لون من الحماية عليه وضمنان سلامته من سهام النقد والتجريح ولذلك وجب على (الولي) أن يربط بينه وبين هذا الأصل وهو (محمد - جبرائيل - الله) من خلال عدد متعاقب من الصالحين والأولياء المعروفين . وهذه هي (السلسلة) في النظام الصوفي . وعلى كل درویش أن

يعرف سلسلته التي تربطه بالله تعالى نفسه كما عليه أن يؤمن بأن العقيدة التي تلقاها (أي الطريقة) هي الجوهر الأصلي والحقيقي لدين الاسلام . وإن شعائر ممارسات تلك الطريقة هي بسمو وصحة (السلسلة) . وأما علاقته بالسلسلة فتم عن طريق مرشده (شيخه أو معلمه أو دليله أو بيره أو أستاذه) وهو الشخص الذي ضمه إليه . والضم يُوثق (عهد) يتضمن قسما ونذرا واعترافا دينيا (توبة) وتختلف أيضا باختلاف الطرق . وقبل أن يوثق العهد بين المريـد والشيخ يكون الأول قد عانى ممارسات تطول وتقصـر يخضع فيها كما هو جلتي إلى رقابة مغنطيسية من قبل شيخه ويبقى على صلة وألفة معه .

كان الفقه في الاسلام دوما بعض شكل من أشكال التصوف : إلا أن الأخير منهما لا حدود معينة له فهو قد يبدأ مجرد تزهـد صوفي ويتعد حتى يبلغ إلى عقيدة (وحدة الوجود) وإنكار العقائد السماوية إنكارا تاما . وبلغ الأمر إلى الحد الذي إنقسم الدراويش في إيران مثلا إلى فريق يطلق عليه (درويش با شرع) أي الدراويش المتمسكين بالشرعية وإلى (درويش بي شرع) أي الدراويش الذين لا يؤمنون بالشرعية . وإنكار الشريعة هنا لا يقتصر على شعائرها وفرائضها وإنما يتعداه إلى قانونها الإخلاقي . وبين هذين الحدين المتحفظ جدا والمتطرف إلى النهاية تجد مختلف أنواع الطرق الصوفية .

إن الممارسة العملية للدروشة تشدد دائما على أهمية الحياة الدينية العاطفية وتميل إلى توليد ظاهرة انجذاب مغنطيسي ذاتي أو غير ذاتي ونوبات من النشوة والوجد . ومن أشكال هذه الممارسات أن بعض الطرق تفرض على أعضائها قضاء فترات دورية معينة (من السنة أو الشهر) في انقطاع كلي عن العالم ، والعزلة عن الناس تماما مع الصيام إلى أقصى قدرات التحمل والترديد المتواصل وبدون نهاية لعبارات دينية مخصصة وأدعية معينة . إن تأثير هذا على الجهاز العصبي والمخيلة والدماغ يكون عميقا جدا بالغ الخطورة وأوضح



من أن تخطئه العين والحواس . و(الذكر) (41) كما بينا هو المراسيم الطقسية لكل طريقة ويقصد بالذكر تذكر الله تعالى . والغرض منه هو أن يستحضر الذاكر لنفسه فكرة العالم الآخر الذي لا يراه البشر والتوكل عليه والأمل في نواله . ولا يأتي الذكر وحده وإنما يرافقه تسام ديني رفيع وأخيلة جميلة وهذا ما يدعى ب(الوقوع في الحال) أو بعبارة أخرى (حالة النشوة أو الانجذاب) ويتضمن مغنطة Hypnotism (جذبا) إما يكون للمجذوب بمثابة حافز ومنبه وإما يظهر كأثر ناشئ من الحالة نفسها . ومن مظاهرها حالات فسلجية وتغيرات جسمانية لا إرادية وغير إعتيادية كالتنشج وخطب الأذرع والأرجل في الهواء أو التمرغ على الأرض والزعيق بأصوات لا تشبه أصوات البشر ويستعينون للوصول إلى هذه الحالة (حالة الجذب والنشوة) بأداء حركات إيقاعية ورقص عنيف متواصل وهم يستخدمون آلات القرع كالدفوف والدهل (الطبل) بإيقاع مخصوص مهيج . وتمارس بعض الطرق أعمالا خارقة كالمشي على النار وابتلاع الحصى وقذفها من المعدة والتهام الجمر وأكل الأفاعي والعقارب وهي حية وبلغ كسر الزجاج وإدخال المسامير في العيون وثقب الجلد ثقبوا عميقة وغرس الآلات الجارحة كالسكاكين والمدى والسيوف الحادة في الأحشاء فيجتذبون إليهم الانظار بذلك ويخائفون في أنفس من راهم المهابة والجلال فهو أسلوب دعاية عملي جدا .

سجل الباحثون والمعنيون بأمور التصوف وكثير من الرحالة الغربيين إلى الشرق مشاهداتهم دون أن يجرأوا على تعليل ما رأوه أو تفسيره كما

(41) يرددون عادة عبارة « قل الله » أو « لا إله إلا الله » بدون نهاية تطبيقا لاحكام آلاية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا - سورة 33 . آية 41 و42 وما هو واجب الذكر هنا أن الكاتب نفسه قد تصدى إلى الموضوع في مجلة « حول إيران » التي تصدر باللغة الانكليزية . Around Iran, Jan. 1975 PP. 26-27 وفي مجلة بروسيهاي تاريخي «البحوث التاريخية (طريقة درميان كردها-الطريقة عند الاكراد) العدد: 5 الص 368-369 . ولم يكن استيعاب المجلتين يسمح بالاطالة والتفصيل في وجهة النظر . (هناك نوعان من الذكر ، الذكر الجلى أو الذكر العلنى والذكر الخفى أي التردد بالقلب لا بالشفا واللسان . وهناك من يستعيز عن العبارات الواردة في القرآن بعبارة (الله حي) . وهناك من يقرأ آياتا من الشعر منقومة فيها اسم الله ويردها . وليس بشرط أن يكون الذكر باللغة العربية .

شاهدناها نحن وما نزال . وعمد بعضهم إلى إلتقاط صور فتوغرافية وأفلاما سينمائية دحضا للتعليل الشائع وهو أن الموضوع كله يتمّ بعملية تنويم مغناطيسي شاملة للجمهور المتفرج . ويظهر أن ممارسة هذه الأعمال العجيبة كان قديما قدم الدروشة وأقرب ما يخطر ببالنا أن ننقل ما شاهده الرحالة الشهير ابن بطوطة (703-781هـ/1303-1377م) في موضع بالقرب من « واسط » وفي موقع قريب من مدينة « دلهي » بالهند قال :

« وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بني أسد وفي ظهر اليوم الثاني إلى الرواق وفيه رباط عظيم فيه الاف الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد وليّ الله أبى العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده وإليه إنتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الدفوف والطبول وأخذ الفقراء في الرقص ثمّ صلوا العشاء الاخرة ... وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثمّ أخذوا في السماع وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفسه حتى أطفئوها جميعا وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا . وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعضّ بأسنانه على رأسها حتى يقطعه .

ويعقب ابن بطوطة فيروى سياقاً مشاهداته لأعمال من سماهم بأتباع الطائفة الحيدرية على مسيرة خمسة (أيام) من دلهي في موضع (اقفانبور) قال « وصل هناك جماعة من الفقراء في أعناقهم أطواق الحديد وفي أيديهم . وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب منى كبيرهم أن آتية بالحطب ليوقدوه عند رقصهم ... فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الاخرة حتى صارت جمرا وأخذوا في السماع ثمّ دخلوا في تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها . وطلب

مني كبيرهم قميصا ..... فاعطيته قميصا في النهاية من الرقة  
فلبسه وجعل يتمرغ به في النار وجاء إليّ بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيئا البتة  
فطال عجبني منه .... (42) » .

يودى الدراويش القادرية مراسم الذكر (السماع) علنا وأمام الانظار  
كافة دونما تهيّب أو تحرج ويحضر كثير من الزوار والمتفرجين مجالس  
ذكرهم هذه ويأتون بهذه الأعمال العجيبة خلافا لنهي الشريعة عنها وواقع  
كون الطريقة القادرية أقرب الطرق إلى السنة وأشدّها تمسكا بالشرع : ويعلمون  
إتيانهم تلك الحركات والمزاسيم بنفس ما عللناه ولكن بعبارات قاصرة بسيطة  
فيقولون ما زبدته « ان الوصول إلى الحق (الله) وتركية النفس والباطن لا  
يكتملان إلاّ بالوصول بالجسم إلى درجة اللذة الحسية عن طريق الحركات  
والتثني الايقاعي السريع والرقص والطرب المتأثي من قرع الطبول وأداء الذكر  
بصوت منغوم رتيب » فيهزون رؤوسهم يمّة ويسرة ويتمايلون ويسقطون  
على الأرض ويتمخطون وعلى أوجههم تكشيرة باهتة هي تكشيرة الإحساس  
بالنشوة واللذة . وبعد إستمرارهم في ذلك بمدة يبلغون مرتبة الغيوبة والوجد  
وتلك هي مرحلة التحول الروحي (43) وفي هذه الفترة يبدأون بمزاولة أعمالهم  
الخارقة . ويروى المستشرق المعروف (مينورسكي) وصفا لحلقة ذكر في  
کردستان لأهل الطريقة القادرية فيقول « كان صديقي القديم في رحلاتي  
(د. د. بلياييف) قد التقى في العام 1914 بمجموعة من هؤلاء الدراويش .  
وكانوا يرتلون (لا إله إلا الله) وهم يتحركون ويتمايلون ببطء في مبدء الأمر  
ثمّ أسرع النغم على قرع الدفوف الكبيرة حتى وصلوا حالة غير إعتيادية من  
الغيوبة والوجد فاخذوا يتفافزون في أماكنهم ويضربون بعضهم بعضا

(42) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) ط القاهرة 1924  
الصف 114-115 .

(43) اسلام در ايران - (ايليا بافلوفتش بيتروفسكي) ترجمة كريم كشاورز تهران 1351  
شرقي ص 344 .

برؤوسهم وينطحون حيطان الغرفة . وكانوا يدورون بسرعة فتتطاير خصلات شعر رؤوسهم في الهواء . كانوا يقومون بحركات هستيرية ويندفعون بقوة إلى الحلقة . لا شك أن هذا المنظر مؤثر في المشاهدين ولا سيما بالنسبة إلى الأوروبيين الحاضرين . وقد استنكر أحدهم هذا العمل ورجا من الشيخ أن يأمر بإيقاف المراسم . وما أن صدرت إشارة خفيفة منه حتى هدأ الجو وبردت العقول (44) .

هذه الأعمال كانت تعتبر مجرد حيل من ناحية . ومن ناحية أخرى حقيقة ممكنة بحالة الجذب والمغطة . ولكن ليس هذا كل شيء فهناك حالة أخرى تظهر في الدراويش أكثر استلفاتا للنظر وأدعى إلى الدهشة وأصعب تفسيراً أنها ظاهرة آلية (ذاتية الحركة) نوه بها مينورسكي تنويعها خفيفاً دون أن ينتبه إليها . وهي بأكثر تفصيل سماع الدراويش أشياء لا تسمعها الأذن المجردة ورؤية ما لا تراه العين العادية (المقدرة على الاستبصار) وفي بعض الأحيان إرتفاع الجسم في الهواء خلافاً لقانون الجاذبية وهي أمور تستدعي إهتماماً أكثر من الباحثين ودراسة من العلماء المختصين . على أن هذه الخوارق الأخيرة وقف لاشك على شيوخ الطريقة والأولياء الصوفيين وهي التي توصف بالكرامات أي العجائب التي يأتيهم الإذن بها من الله تعالى : (الحق) .

كان الاعتقاد السائد أن الخوارق التي يأتيها الدراويش هي مجرد حيل . أو مغنطة عامة يفرضها الشيخ على الحاضرين ومنهم الدراويش أنفسهم أو يفرضها الدراويش القائمون بالأعمال أنفسهم . فيؤدون أو (لا يؤدون) ما هو مجرد حركات فحسب ، يتخيلها الناظر وهو تحت تأثير التنويم المغناطيس حقيقة واقعة بينما هي مجرد وهم قائم في المخيلة . لكن تطور التصوير السينمائي والفوتوغرافي وعدم إمكان تأثير الآلة بالتنويم المغناطيسي وخروجها

(44) الاكراد ملاحظات وانطباعات (مينورسكي) ترجمة الدكتور معروف خزندار ص 53 طبع بغداد .

عن نطاق قابلية الايحاء ألجأت المهتمين بالبحث عن تعليل علمي آخر أقرب إلى المنطق . وما نراه نحن وهو لا أكثر من رأى أو تعليل قد يشوق المتتبع إلى استقصائه أو تخطئته بتعليل آخر : هو أن الشيخ الذي يجب حضوره قطعاً في مجالس الذكر تتعاون قوته المغناطيسية مع حالة الجذب التي يبلغها الدرويش لاستحداث ظاهرة روحية وفلسجية عجيبة في تكوين الانسان وهو تحكم الدماغ تحكمًا مطلقاً في عمليات الأجهزة العضوية في الجسم وخاصة الدورة الدموية والجهاز العصبي وفي عملية نسج خلايا الجسم فيوقف عملها جميعها فلا تتلف الخلايا بتأثير الشدة الخارجية ويتوقف الدم عن سريانه في الناحية المصابة ولا يبقى للجرح من أثر عندما يضع الشيخ يده على المكان المصاب وتفسح الأنسجة ومجموعات الخلايا التي تكون الأعضاء الداخلية (الاحشاء) مكاناً للجسم الغريب (سكيناً كان أم دبوساً) عندما ينفذ إليها دون أن تصاب بتمزق . ويفقد الجهاز العصبي إحساسه أو يرفض إبلاغ رسالة الألم إلى الدماغ فلا يشعر المطعون بشيء ولا يحترق لسان وفم مبتلع جمرات النار ولا تتأثر بشرته بلذعاتها . إن ظاهرة إيقاع الشدة هذه لمختلف الأسباب الروحية لا يستطيع العلماء إنكارها مثلما لا يستطيعون تعليلها في الوقت الحاضر وما زال العلم قاصراً عن تقديم تفسير لمعظم ظواهر هذا الكون والاحياء التي تعيش فيه . وليس ببعيد أبداً أن تكون أعمال الدراويش هذه مما قصر باع العلم عن إعطاء تفسير له حتى الآن .

وظاهرة (الكرامات) التي يقوم بها الشيوخ تخضع أيضاً لنفس الفرض الذي بسطناه وربما خضعت أيضاً لنفس التعليل وهو مقدرة الشيخ الخارقة على التحكم بأعضاء جسمه تحكمًا مطلقاً لفترة معينة من الزمن وفي أحوال معينة يعرفها هو نفسه فحسب .

### دكتور حسن جاف

الأستاذ المساعد في كلية الألهيات والمعارف الاسلامية  
جامعة طهران

